

# الثورة الأندلسية الكبرى على الأباطورية الإسبانية (١ من ٢) الفترة الأولى: ١٥٦٨-١٥٧٠

عادل سعيد بشتاوي \*

■ ماتت الملكة إيزابيلا بعد سنتين من إصدار مرسوم عام ١٥٠٢ الذي اعتبر كل الأندلسيين الذين بقوا في مملكة غرناطة مضربين رسمياً. وبدأت السلطات الدينية والمدنية تدريجياً تحوّل المساجد إلى كنائس أو دهمها وحظر الصلاة ورفع الأذان والصوم والعاشائر الإسلامية الأخرى. لكن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم وعموا واستمروا في ممارسة عباداتهم وعاداتهم في بيوتهم. وفي عام ١٥٠٨ اصدر زوج إيزابيلا الملك فرناندو مرسوماً جديداً حظر على الأندلسيين التخطب بالعربية وارتداء الملابس الأندلسية وممارسة التقاليد والعادات

العربية، لكن الأندلسيين تجاهلوا هذا المرسوم أيضاً. ولم تجدد السلطات جنود من محاولة تطبيقه خوفاً من إثارة الأندلسيين في مرحلة تطلب من فرناندو تكريس جهده ووقته لعزل الفرنسيين وتثبيت مملكته الإغريقية في البحر الأبيض المتوسط والعالم الجديد، خصوصاً أن التشدد كان سيلحق خصوصاً بالغة بالنسباء الاقطاعيين الذين وظّفوا عدداً كبيراً من الأندلسيين في مزارعهم ومصانعهم.

وفي التاريخ الإسباني تركيز مٌلفٌت على إبراز تكثف الملك الملوك وشدة تدبيرهم بعد قمته في إيزابيلا الكاثوليكية، إلا أن المؤرخين الإسبان يفضلون تعميمه أيضاً على زوجها فرناندو. ويُقال إن هذا الملك كان يهجس في آخر أيامه بحلم



حي اندلسي في مدينة قلعة أيوب الشمالية

تحقيق السلام في أوروبا والإنطلاق بعدها بحملة صليبية هائلة لإحتلال مصر (البركز القوة العربية الإسلامية آنذاك)، ثم الاتجاه بعد ذلك إلى القدس لحشد فرناندو الجيوش والأساطيل التي ستوجهه إلى المغرب ومصر والقدس وانفق عليها من الضرائب التي كان يحصلها من الإسبان بحكمة من البداية فإذا تخير مسارها في الخطة الأخيرة وتشتبك مع الفرنسيين الذين بقوا اخطر اعداء قشتالة يوم مات فرناندو عام ١٥١٦. ووقعت مسؤولية إعداد البلاد لاستقبال حفيده كارلوس الخامس من هجوم توقعته السلطات قيام الأسطول العثماني بشنّه فساد المدينة الخوف والاضطراب والقلق. وفي صيف ذلك العام (١٥١٩) ظهر عدد من حالات الإصابة بالطاعون بلبنسية فهرب المسؤولون والجنود منها، وشكل بعض السكان مجموعات سمّيت مجموعات «جرمانية» أو «الأخوة» تسلمت السلطة وبدأت توسيع نفوذها في الأرياف. ويقال إن حياكاً اسمه خوان لورينك تسلّم قيادة هذه المجموعات وفكر بتحويل بلنسية إلى جمهورية مدائنية على غرار جمهورية البندقية، ولم يحقق لورينك هدفه إذ نجاه زعيم ثوري اسمه بيريس وجهه جماعته ضد النبلاء، وبما أن قسماً كبيراً من الأندلسيين كان يعمل لدى النبلاء فقد دعمهم بيريس في صف العدا للثورة والتأييد لعودة الملكية. ورفع بيريس شعاراً شعبياً هو: «اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفار» وأضحت ثورة بلنسية مركز حركة إصلاح اجتماعي وديني فاقترح الثوار المناطق التي يسكنها الأندلسيون ونصروا بالثورة نحو ١٦٠ ألف اندلسي.

وخاف الأندلسيون في باقي مملكة أرغون امتداد ثورة المدن إليهم في ظل التفكك الحاصل فهرب الآلاف في سفن اجروا على متنها ليلاً وانضموا إلى الألف أخرى كانت التجأت إلى الجزائر. واستمر القلق فترة إلا أن الحركة ضعفت بعد ذلك وزادها التطرف عزلة فتمكّن الموالون للملكية من هزيمة قوات بيريس خارج مدينة بلنسية في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٥٢١. وفر بيريس فقيض عليه أول السنة التالية، وانتهت بذلك ثورة أهل المدن في أرغون تملكا كانت انتهت في قشتالة. وقدر كارلوس للأندلسيين تأييده فكافأهم على ولائهم بالزمام نفسه في خطاب استلام عرش أرغون الذي القاه خلال الاحتفال



أماكن إقامة الأندلسيين (١٦١٨)

والبروتستانت لكنه لم يتمكن من قهر أي من أعدائه الثلاثة فهرب من جبال الشكاشك التي واجهته إلى همداء دير بيوت حيث تصوم ومات بعد سنتين من تنازله عن العرش لابنه فيليب عام ١٥٥٦. وعانى الأندلسيون الكثير خلال حكم كارلوس لكن الاضطهاد الحقيقي كان ينتظرهم في عهد خليفة فيليب الثاني الذي ينتمي في تعصبه وتشده إلى إيزابيلا أكثر من انتماه إلى ابنه، ويرتبط تصرفاً ونظرة بالدراسة القشتالية التي خرجت توريسميده والإسلام وخميس وديغو سيبنورا وسانز ديوسا فيليب صاحب ممالك نوبلية لكنه لم يترك قشتالة يوماً واحداً، وكان قسماً لآسيا وكاثوليكيًا حتى العظم فأنفق أمواله وأموال قشتالة وذهب فوضه مستعمراتها في العالم الجديد على مقارعة أعدائه الثلاثة: البروتستانتية والإسلام وفرنسا، لكنه مات وكل من الإسلام والبروتستانتية وفرنسا أقوى مما كانوا عليه في أي يوم من أيام حياته. ولم يترك فيليب الثاني للأندلسيين أي خيار فاحتكموا إلى الثورة في عهد إيزابيلا وإلى الثورة احتكموا مجبرين مرة أخرى.

وفي جو هذا الصراع الدولي والديني الواسع الذي كان كارلوس الخامس مركزه الأول، لم تعد الضرائب التي يدفعها الأندلسيون مجدية ومطلها الرشوة أو إظهار الولاء والتصرف قشتاليين طبيين. وكانت حرب كارلوس عالية التكاليف، وكانت الكنيسة القشتالية في حاجة إلى مصادر تمويل للإنفاق على أعمالها ومبانيها فبدأت في الأربعينات والخمسينات من القرن السادس عشر عمليات واسعة النطاق لمصادرة أملاك الأندلسيين بدوى انها الطريق الوحيد لتضخيم الأندلسيين مع الكنيسة حتى باتت أكبر مالك للأراضي في إسبانيا. ولم يشفع للأندلسيين بلنسيين تأييدهم كارلوس ووجدوا أنفسهم يعانون مثل أخوانهم في غرناطة. فبدأوا استقرت الأوضاع في بلنسية قدم الأندلسيون هناك طلباً إلى الكنيسة لاعتبار تخصصهم الإيجاري مخالفة للقوانين والاعراف المعهودة في أرغون وبالتالي ما بلا من أساسه فنشكزت لجنة كنسية بحثت في الطلب وانتهت إلى أن ثورة المدن في بلنسية باطلة فعلاً لكن التصبر مقبول ولا يمكن الغاؤه تحت أي ظروف.

وهكذا بدأت أحاسن الأندلسيين تتغير بسرعة في النصف الثاني من حكم كارلوس الخامس الذي قاد حروباً نوبلية ضد العثمانيين والفرنسيين

والتي انقسمت المدن الإسبانية في تلك الفترة بين مؤيدة لعودة كارلوس ومعارضة. وكانت غرناطة وعدد آخر من المدن في الجنوب من الجماعة الأولى فغضب أهلها الأندلسيون كارلوس على العودة إلى البلاد واستلام مقاليد الحكم في حين لم ترد مدن كثيرة غيرها رؤية وجه كارلوس مرة أخرى. وفي الوقت نفسه الذي اندلعت ثورة أهل المدن في قشتالة كان أهل مدن مملكة أرغون يشعرون بمرارة مشابهة لكن لأسباب مختلفة تماماً. ففي السنة التي سبقته اندلاع الثورة في بلنسية صرف الجنود الأسلحة لبعض الجماعات للمساعدة على حمايتها من هجوم توقعته السلطات قيام الأسطول العثماني بشنّه فساد المدينة الخوف والاضطراب والقلق. وفي صيف ذلك العام (١٥١٩) ظهر عدد من حالات الإصابة بالطاعون بلبنسية فهرب المسؤولون والجنود منها، وشكل بعض السكان مجموعات سمّيت مجموعات «جرمانية» أو «الأخوة» تسلمت السلطة وبدأت توسيع نفوذها في الأرياف. ويقال إن حياكاً اسمه خوان لورينك تسلّم قيادة هذه المجموعات وفكر بتحويل بلنسية إلى جمهورية مدائنية على غرار جمهورية البندقية، ولم يحقق لورينك هدفه إذ نجاه زعيم ثوري اسمه بيريس وجهه جماعته ضد النبلاء، وبما أن قسماً كبيراً من الأندلسيين كان يعمل لدى النبلاء فقد دعمهم بيريس في صف العدا للثورة والتأييد لعودة الملكية. ورفع بيريس شعاراً شعبياً هو: «اليوم تنتهي أيام النبلاء والكفار» وأضحت ثورة بلنسية مركز حركة إصلاح اجتماعي وديني فاقترح الثوار المناطق التي يسكنها الأندلسيون ونصروا بالثورة نحو ١٦٠ ألف اندلسي.

«لسنا ندعوك أو نناييك إلا قائماً، أي على حق». «الحق» والواجب، «وحيّ الله الأمر حقاً: أتيتته وأوجبه». وذلك لأن الحق في اللغة «هو وقوع الشيء في موقعه الذي هو أولى به». فالعمل الصالح هو الذي يضع الأشياء في حقوقها، عمل حكيم يتم بالعقل الذي يتخلف على الأهواء والشهوات والنزوات، وهو أمر لا يقوم به من يملك صدره القدر على إنشاء الشرائع الأخرى والطوائف الأخرى، ويناصبهم العدا، تتحكم به أهواؤه فيضل الناس باستغلال الفروق التي وصفها الله بين البشر ودعوة للحوار معهم بقصد الوصول إلى القرآن الإنسانية القائمة على وحدة الرسالة المساوية التي جاءت بشرائع ومناهج متنوعة متشابهة أكد القرآن هداية أهلها جميعاً، وتساؤل عما أسحق عما إذا كان لا يمانع مثل غير الإيمان. دون أن يلاحظ أن النص هو فيان أمن الناس بمثل ما أنتم به وليس بمثل إيمانكم، ومثل ما أنتم به هو الشرائع الأخر التي تحمل ذات الرسالة فتمتثل الشريعة القرآنية، وأن اختلفت عنها في الأغراض أي في النهج والأسلوب واللغة. والرسالة واضحة وهي الإيمان بالله والعمل الصالح باخذ بها من شأنه فيكون من المهتمين. وهو قول مطلق لا يخص أهل شريعة معينة، ولا يخص المعتمين بيهويتهم إلى هذه الشرائع، وتناجرت الآيات بالمعنى ذاته في أكثر من ثلاثين موقع في القرآن الكريم. وهي آيات تفصل في المسألة فصلاً مطلقاً، بأن هؤلاء جميعاً مهتمون مسلمون، دخلوا في الإسلام أو النصرانية واليهودية أو في أي دين آخر أم لم يدخلوا. وهكذا يكون القرآن قد فتح صدر الإسلام والهداية وإسعاً لكل من اطمان لوجود الله وغير عن هذا الأطمأن بالعمل الصالح، والصالح هو القرآن وهو الصلاح بحسب معناه في العربية التي نزل بها وهو اللسان العربي المبين، غير ذي العوج، حاصلاً أعرف وحكمة العرب، وأصله في اللغة من صلح أحي صلح وصرح وصرح وهي تدل على الصلح والصفاء والصحة. ففيها قلب لصفحة الخلاف والعداء، وخلص من الغش، وعودة إلى الصحة عقب حال السماح والنقاء والكمال. «الصالح» ضد الفساد، وإذا كان الفساد هو طريق النقص والزوال، فالعمل الصالح هو مزيل للنقص والفساد سواء كان نقصاً وفساداً في وحدة المجتمع الإنساني، بالتصالح، أو نقصاً في الكمال البشري، بالرغم نحو هذا الكمال الذي هو القوام الإنساني حسبما خلقه الله في أحسن تقويم أي في أحسن صورة. وهذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهذا هو الدين القيم الذي هو الدين الذي تبلغ البشرية به قوامها الذي خلقها الله عليه، وهو أمر منطقي على اشتقاق العرب للقيمة من قام أصل القوام، جعلهم لها فيما يرفع نحو هذا القوام، وهو قوام عام بدليل اشتقاق تسمية القوم من أصله، وهم من يقوم بهم الفرد فإذا هم يشملون كل من يسهم في ذلك من الأبناء في قاطبة، وهي التي نزلت من أجلها الشرائع قاطبة. وإن كان هذا القوام في اللغة التي نزل بها القرآن، هو «العدل»، باعتباره نقطة التوازن الكمال والاستقامة التي هي «اعتدال الشيء واستواءه»، والمستقيم هو الذي لا يزع فيه عن الحق، «اللة القيمة: المعتدلة. والأمة مسلمون. وقد كان قوم سليمان من المسلمين أيضاً،

\* من أسرة «الحياة»، وهذا جزء من الفصل الثالث في كتاب «الأمم الأندلسية الشبيهة، التي يصدر قريباً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **خمس صلوات كتبتن لله على الصادق، من أتى بهن يتباعدن كان له عند الله عهدان، يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهدان، إن شاء عبده وإن شاء أدخله الجنة.**

المدينة	الفجر	الشروق	الظهر	العصر	المغرب	العشاء
مكة المكرمة	٥.٣٠	٦.٤٥	١٢.٣٥	١٥.٤٥	١٨.٢٢	١٩.٥٢
المنيرة المنورة	٥.٣١	٦.٤٦	١٢.٣٥	١٥.٤٥	١٨.٢٢	١٩.٤٤
القدس المحتلة	٤.٥١	٦.١٣	١١.٥٥	١٤.٥٥	١٧.٢٢	١٨.٤٤
أبو ظبي	٥.٣٢	٦.٤٧	١٢.٣٧	١٥.٤٥	١٨.٢٢	١٩.٤٢
القاهرة	٤.٤٩	٦.٠٥	١١.٥٩	١٤.٥٩	١٧.٢٦	١٨.٤٤
الجزائر	٦.٠٠	٧.٢٧	١٢.٠٣	١٥.٠٣	١٧.٢٤	١٨.٤٤
الخرطوم	٤.٥٨	٦.٠٩	١١.٥٦	١٤.٥٦	١٧.٢٤	١٨.٤٠
الكويت	٥.٠٢	٦.٢٠	١٢.٠٥	١٥.١٨	١٧.٤٥	١٨.٥٥
الرياض	٤.٥١	٦.٠٢	١١.٥٠	١٤.٥٠	١٧.٢٤	١٨.٣٦
الوجهة	٥.٠٤	٦.١٩	١٢.٠٩	١٥.٠٩	١٧.٢٤	١٨.٤٢
القاهرة	٤.٤٥	٦.٠٠	١١.٥٥	١٤.٥٥	١٧.٢٣	١٨.٤٤
بيروت	٤.٥٥	٦.١٤	١٢.٠٥	١٥.٠١	١٧.٢٤	١٨.٤٧
بغداد	٥.١٥	٦.٣٨	١٢.١٨	١٥.٢٦	١٧.٥٣	١٩.١١
تونس	٥.٣٢	٦.٥٨	١٢.٢٨	١٥.٣٩	١٧.٥٣	١٩.٢٦
جيبوتي	٥.١٣	٦.٢٤	١٢.٢٢	١٥.٤٣	١٧.٥٣	١٩.٢٢
دمشق	٤.٤٧	٦.١٠	١١.٥٥	١٤.٥٨	١٧.٢٦	١٨.٤٢
دبي	٥.٣٠	٦.٤٦	١٢.٣٦	١٥.٥٠	١٨.٢٢	١٩.٤٢
مسفعا	٥.١١	٦.٤٦	١٢.٣٦	١٥.٣٩	١٨.١١	١٩.٤٨
طرابلس الغرب	٥.١٩	٦.٤٢	١٢.٣٢	١٥.٣١	١٨.٠٥	١٩.٤٥
عمان	٤.٤٩	٦.١٠	١١.٥٥	١٤.٥٣	١٧.٢٤	١٨.٤٥
مسقط	٥.١٦	٦.٣١	١٢.٢٠	١٥.٣٩	١٨.٠٦	١٩.١٧
مقديشو	٤.٥٨	٦.٠٦	١١.٥٦	١٤.٥٦	١٨.١٥	١٩.٢١
نواكشوط	٦.١٣	٧.٢٥	١٢.٣٨	١٥.٣٨	١٧.٤٠	٢٠.١٧
أنقرة	٥.٠١	٦.٢١	١١.٥٠	١٤.٥٠	١٧.٢٢	١٨.٥٦
طهران	٥.١٥	٦.٤٠	١٢.٢٨	١٥.٢٤	١٧.٥١	١٩.١١
البيتا	٥.٣٩	٦.٥٥	١٢.٢٨	١٥.٤٣	١٧.٢٦	١٩.٣٣
برلين	٥.٢٩	٦.٤٩	١٢.٢٢	١٥.٤٦	١٧.٣٠	١٩.٠٤
بروكسل	٤.٠١	٦.٠٢	١١.٥٥	١٤.٥٥	١٧.٢٤	١٨.٤٤
باريس	٦.٠٨	٧.٤٤	١٣.٠٥	١٥.٠٥	١٨.٢٢	١٩.٥٣
جنيف	٥.٤٨	٦.٢٧	١٢.٠٥	١٥.٣٩	١٨.١١	١٩.٤١
روما	٥.٣٢	٦.٥٥	١٢.٢٤	١٥.٢٢	١٧.٥١	١٩.١٨
ساراييفو	٤.٥٩	٦.٣٣	١٢.٠١	١٤.٥٦	١٧.٢٥	١٨.٥٣
ستوكهولم	٥.١٦	٦.٣٨	١٢.٠٣	١٤.١٦	١٦.٥٣	١٨.٣٣
كوبنهاغن	٥.٣٦	٦.١٥	١١.٥٥	١٤.٥٥	١٧.٢٦	١٩.٠٣
لندن	٥.٢٠	٦.٠٥	١١.٥٠	١٤.٥٢	١٧.٢٦	١٩.٠٠
ميدريد	٦.٢٨	٧.٥٨	١٣.٢٠	١٥.٣٠	١٨.٥٧	٢٠.٢٢
ننقوسيا	٥.٠٠	٦.٢٤	١٢.٠١	١٥.٠٩	١٧.٢٦	١٨.٥٥
واشنطن	٥.١١	٦.٤٩	١٢.٢٤	١٥.٢٦	١٧.٥٢	١٩.١٥
أوتاوا	٥.١٥	٦.٥٣	١٢.٢٨	١٥.٠٩	١٧.٣٨	١٩.١١

\* تقويم المركز الاسلامي في اخن، ألمانيا. \*\* يرجى مراعاة التوقيت الصيفي.

ذلك. وهكذا يبدو كيف أن العمل الصالح الناتج عن الحكمة مرتبط بالعلم. لأن العلم هو الذي يعمل بما علم. وعلّم مقبول عمل في العربية والسبب له عندما تقصد به العمل الصالح. لأن هذا عمل منضبط في حدود ما يؤدي إلى بلوغ القوام البشري بالامتثال عن العمل وحسب الفعل والعمل على الجسدين. وهو مميز للعمل العقلي حتى أن العقل قد عرف به. والعقل: «الإسكان عن القبيح وضبط النفس وحبسها في الحسن». فالعقل هو وسيلة العلم والعمل الصالح. والاهتمام القرآن به تحذير لأهل الجهل والأهواء الذين يتصرفون بغير علم. ولما كانت الحرية بنت العقل، فهي مقيدة بما يقرره خيراً عاماً مزمهاً عن الأمانة لأن العقل لا يترك إلا الكليات. ولذلك قال العرب: «الحسن: الفعل الحسن»، «والحر من الناس خيارهم وأقاربهم. وحرية العرب: اشرافهم، وجازت الكلمة من ذلك إلى الجيد والأصيل من كل فاجر، من شعر وغيره. ولذلك كانت الحرية، بمعناها العربي، ذات قوانين أشد صرامة من نير الطغاة.

وهذا ذلك نهم كيف تتعلق القيم بالفعل الحر لأنه يتم بالصراع مع مطالب القوى الحيوانية التي تشد بالإنسان إلى أسفل ليتصرف بحسب الهوى فتعبد عن أن يكون في أحسن تقويم أو في أحسن صورة، لذلك نهي الله النفس عن اتساع الهوى، وهذا الصراع بين العقل وحرية من جهة، والقوى الأمانة بالسوء من جهة ثانية، وهو امتحان الله للإنسان، وهو أساس مسؤوليته الذي ميزه عن بقية المخلوقات حتى الملائكة منها. وهو أمر واضح في قوله للملائكة يوم خلقه وجعله خليفة في الأرض. ولما اعترض الملائكة على خلافه آدم في الأرض، إنما أشاروا إلى القوى الحيوانية ذات المطالب الأتانية التي تقصد في الأرض وتسفك الدماء، وجعلوا السبب الذي من أجله فضل الله آدم، وهو العقل الذي يعلم والحرية التي تختار الخير من هذا العلم فيقوم به العاقل بالصراع مع هذه القوى. وذلك لأن هذا الصراع هو مصدر القيمة في العمل البشري. وهذا ما يفسر قضية تاجيل عقاب إبليس على عصيانه وأطلق يده في إغواء الناس لأمتحانهم. وذلك لأنه إنما يتغويهم بمطالب هذه القوى ذاتها التي تنازع العقل وحرية العقل، وهو يتحكم ببني آدم إلا العباد الخالصين منهم. وهؤلاء المخلصون هم الذين تغلب العقل فيهم على الأهواء والشهوات. أما بقية المخلوقات الخاضعة للتقيد أعفيت من المسؤولية لأنه لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها. والتقيد بهذه الحكمة واجب إنساني عام، وهو التي انشأ الحضارات الحديثة في العالم والتي قصر فيها المسلمون في وقتنا الحاضر. وربما عادها فبعضهم جعلهم أنها ذات أساس قرآني واضح لا شك عليه ينطلق على كل علم أو فن أو تخصص سياسي أو اجتماعي أو أسروي. والأهمية هذا التنظيم الأخير في الحياة، جعلناه الحقيقة القرآنية الثالثة التي نود التذكير بها لبيان أن الحل القرآني بشأنه مفتوح على كل تطور، وإن كل تفسير مخالف لذلك بعيد عن مقاصد الله في القرآن الكريم واهدافه في معالجة هذا الموضوع.

وفي تكرار القرآن للكلمات المشتقة من الثلاثيات: بحث، فحص، فحص، خير وغيره من طرق الحصول على العلم، بيان للسبيل العلمية المؤدية إلى

غسان عبداللہ سکریة